هدية من دار المعارف
إدارة النشر
غير مخصص للبيع

مكتبتي ٥٧

شجار الأشجار

تأليف : عبد التواب يوسف
رسوم : محمد أبو طالب
(الصغير)

دار المعارف

تصميم الغلاف :
محمد أبو طالب
(الصغير)

تنفيذ المتن والغلاف
بالمركز الالكترونى
دار المعارف

رقم الإيداع	٢٠٠٥/٧٨٨٣
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6796-1

٧/٢٠٠٥/١

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

هَذِه عَشر حكَايَات عَنِ الحكيم اليُونانى القديم، الشـهير ((أَيسـوب)) ، وَهِى تمتلـئُ بالحِكمة.. ولسـنَا نَدْرِى لماذَا رَأَى هـذَا الحكيمُ أَنَّ هناكَ صراعًا فيمَا بينَ الأَشجار، شأنهَا فى ذلكَ شأنُ بقيةِ المخلوقَـاتِ والأَحْيَاء .. وقد التقطنَا هَذِه الحكاياتِ مِنْ بينِ المئَـاتِ التِى رَوَاهَا ، وغالبًا ما كَانَ يوضحُ فى آخرهَا ، المغْزى الذِى يقصِدُه منهَا ، ولا نظُنُّ أَنكُمْ فِى حَاجةٍ إلى ذلك، لسَبَب بسيطٍ هُوَ أَنكُمْ سَـتفْهَمُونهَا ، وَسَتَسْتَنْتِجُونَ، وتعرفُونَ هَدَفها فى سُهولةٍ ويُسْر، خَاصَّة وقد مرَّت بكُم مِنْ قَبْلُ .. ولا تَنْسُوا أَنَّ عمرهَا يزيدُ على ٢٥٠٠ سنة، أَىْ أنهَا منذُ قبلِ الميلاَد.

أيسوب

أَوّلُ مَنْ حَكَى قِصصًا للكِبَار والأَطفال فِى الدنيَا.

أَنتم تعرفُونَ قصةَ الحمَلِ والذِّئبِ الذِى قالَ: أَنتَ عكَّرتَ علىَّ الماءَ، وحِكَايةَ الأرنبِ والسُّلحْفاةِ حينَ تَسَابقا، ونامَ الأرنبُ فَفَازَتِ السُّلَحْفاةُ، وسَمِعْتُم عنِ الرَّاعى الذِى كانَ يكْـذِب ويصرخُ: الذِّئبُ.. الذِّئب.. تعرفُونَ هَذِه الحِكايةَ ولا تعْرِفونَ صَاحبَهَا: ((أَيسُوب))، الذِى حَكَى مِئَاتٍ منهَا، مِنْ أَجمَل مَا أَحبَّه الأَطفالُ والكبارُ؛ لأَنهَا مَلِيئةٌ بالحِكْمة.. عَلـى أَنَّ الأَجمَـلَ منهَا هُوَ حِكَايةُ الرَّجلِ نَفْسِـهِ.. المؤلِّفُ الذِى كانَ عبدًا، وجَعَلتْه حِكَايَاتُه سـيِّدًا عَلى السَّـادة.. تَعَالوا بنَا نعرفُ قِصَّتَه، ونحْكِى بعضَ قِصَصِه..

***

كانَ العبدُ الصغيرُ ((أَيسُـوب)) ، ضعيفَ الجِسم ، قلِيلَ الحجْم ، قَبيحَ الوجهِ إلى درجةِ أَنَّ سـيدَه الرومانى الغَنِىَّ قالَ له يومًا :

يَا أَيسُـوب ، احْذَرْ أَنْ تقفَ أَمامَ الثيرانِ فقد تخافُ منْ وجْهِك !

وضَحِك الحاضرونَ ، وأَضافَ السّيد ..

- لَنْ تستطِيعَ الثيرانُ بعدهَا أَن تجرَّ المِحْرَاث !

وَقَهْقَهُوا .. فقالَ :

- بل وسيفْسَدُ لحمُ الثّيرانِ فلاَ نستطيعُ ذَبْحَهَا !

وخفضَ أيسوبُ رأْسَه ، ومضَى فِى حزنٍ يَتعثّر فى ثَوْبِه المُمزَّق ، وَقَدْ ظهرَ الحُزنُ على وَجْهِهِ بجانبِ علاماتِ الغفْلَة والبلاهَة..

وكانَ الصغيرُ يعملُ ليلَ نهار، لا يتوقَّفُ لحظةً ويفتحُ عينيهِ جيدًا لكلِّ مَا حولَه، خَاصَّةً إِذَا رَحَلَ هنَا أو هناكَ.. وكان يتذكرُ نصيحةً قالهَا له شيخٌ عجوزٌ، كانَ يعطفُ عَليْهِ - قَالَ الشيخُ :

- ليسَ المهِمُّ مَا نَراه ، المهمُّ مَا فِى أَنفُسِنَا ، وكيفَ ننظرُ إلى الأَشيَاءِ .

يُحكَى أَنَّ ملكًا عظيمًا كانَ له بغلٌ يَضعُ عَلى ظَهْرِه مَا يُرِيدُ إِذَا سَارَ فِى بلادِهِ ينظُرُ أمرَ الرّعيَّةِ.. وكان الملكُ يَصْحَبُ ابنَهُ مَعَه.. ولم يتعلَّم البغلُ مِنْ هَذه الرّحلاَتِ شيئاً ، لكنَّ الابنَ اسْتفَادَ كثيرًا.. وَعندمَا أَصبحَ ملكًا اسْتطاعَ أَنْ يَحْكمَ بخبرةٍ وَعَدْلٍ..

ويقُولون إِنَّ ((أيسوب)) ذاتَ يوم قدَّم خدمةً جليلةً لشيخيْنِ طيِّبيْنِ، فدعَا له أحدهمَا بالبركةِ ، وَأَنْ يحلَّ عُقدَةَ

لسَـانه ليتحدَّثَ مثلَ النّاسِ.. واسْتجَابت السماءُ وإذَا بِهِ يتحدَّثُ وَيُبْهِرُ كلَّ مَنْ حَوْلَه.. وله عَنْ كُلِّ شيءٍ حكَاية.. وَفِى كلِّ موقفٍ يَروِى قصةً.. ولا ندرى بالضَّبْطِ أيًّا منهَا دفـع صَاحِبَه إلى أنْ يعتقَه وَيتركَه حُرًّا.. هَلْ هِىَ حكايةُ الأَسدِ المريضِ؟!

مرضَ الأَسـدُ وبقَى فى عَرِينه، وأَقبلَـتْ كلُّ حيواناتِ الغَابَة، تَزُوره وتسأله عَنْ صِحَّته.. وَجَاءَ الثعلبُ المكَّارُ، وَحيَّاه مِنْ عندِ الباب، فقالَ الأَسدُ:

- لماذَا لا تدخلُ لنتحدثَ معًا حديثًا حُلوًا ؟!

رَدَّ الثعلـبُ: لأَنـى أَرى آثارَ أَقدَامٍ كَثِـيرةٍ تدخلُ بيتَكَ وَلاَ تخرجُ مِنْه!

وَربمَـا كَانت حكايةُ الصّقـرِ والحَمَامِ هِىَ سَـببُ إِعْطَاءِ ((أيسوب)) حُريته..

فَزِع الحمَامُ. وخافَ مِنْ حدأةٍ تحومُ حولَ عُشِّـه، فأَسـرع يُنَـادِى الصّقرَ لكـى يأتـىَ فَيَحْميه منَ الحـدأة.. وجاءَ الصقرُ.. وبعدَ يومٍ واحدٍ اكتشـفَ الحمامُ أَنَّ الصَّقرَ قتلَ مِنْهُ أَكثرَ مِمّا تخطِفُ الحدأَةُ فِى سَنةٍ كامِلَة.

وَقَدْ تكونُ قِصَّة المرأَةِ التِى كانتْ عندهَا دجاجةٌ تبيضُ كلَّ يومٍ بيضةً ذَهَبيّة، فذبحتْهَا الحمقَاءُ لتحْصُلَ عَلى كُلِّ

مَـا فِيهَا من ذهب. فلم تجدْ شـيئاً، وفقدت الدجاجةَ.. أوْ حِكَايَـة المـرأةِ التِى كانتْ تَبِيعُ اللّـبنَ، وحمَلت جرَّتَها وَرَاحتْ تسـرحُ وتحلُم: أبيعُ اللبنَ، وأشترِي بيضًا، تخرجُ مِنْـهُ كتاكيتٌ، تكبرُ لتصبحَ دجاجًا، أبيعُه وأشْـتَرِى غنمًا، ثم أبيعُها وَأشْـتَرِى أرضًا، وبيتًا وَأصبح غَنيّة.. وَوَقعت القِدْرُ مِنْ فوقِ رأسِهَا وتحطَّمتْ كلُّ الأحْلاَم!

لاَ شـكَّ أنَّ وَاحِـدةً منْ هَـذِه الحكايات جَعَلت السّـيدَ (يادمون) يُطلِق سـراحَ ((أيسـوب)) فسـافرَ إلى عَاصمَة بِـلاَده اليُونَان، فِى ذلكَ الحِـين، حيثُ تعرّف عليهِ الملكُ الذِى كانَ يُحبُّ العلْمَ، فَجَعَله مِنْ حَاشِـيته، وَكانَ كثيرًا مَا يبعثُ به فِى مُهمات يعودُ منهَا نَاجحاً.. لأنه كانَ يستخدمُ الحكمةَ فِى كُلِّ مَا يُوَاجِهُه، ومثالُ ذَلكَ هَذِه القصة :

بعـثَ واحدٌ مِنَ الملوك الجيران إلى مَلك ((ليديا)) يطلبُ إليـهِ أنْ يدفَـعَ الجزيَـةَ أوْ يُقَاتِلَهُ. وخافَ أهـلُ ((ليديا)) وعندمَا استشارَ الملكُ ((أيسوب)) الحكيمَ قَالَ:

أَمامنَـا طَرِيقَانِ.. الحريّةُ وَهى طريقٌ صَعْب وَعِر، لكنّه فِـى النهَايةِ يصبحُ سَـهْلاً وَاسِـعًا، وطريقٌ آخر سَـهْلٌ الآنَ، وكلمَا سِـرنَا فيهِ ضَاقَ وأصبحَ أكثرَ صُعُوبةً وامتلأَ بِالأشوَاكِ، وَلاَ يمكنُ السَّير فِيه، بل يهلكُ كُل مَنْ يحاولُ أنْ يَمْضىَ عَلَيْه..

وأدرك ملكُ ((ليديا)) أن ((أيسوب)) يطالبُ بالنضَالِ عَلى غيرِ مَا يَرَى أَهلُ البَلَد، ووافقَه عَلى وجْهَةِ نَظَره، فمَضَى السفراءُ إلى مَلكِهم وَعَادوا يطلبونَ شيئاً واحدًا فى مُقابلِ أنْ يُسَالمُوا ((ليديا))، ذلكَ الشّىء هُوَ ((أيسوب)) نَفْسُه.. وَسُرَّ الأَهالى بذلكَ وَرَأوا أنْ يُضَحُّوا ((بأيسوب)) الذِى حَكَى لَهُم.. القصة التالية :

اتفقتْ الغَنمُ مَعَ الذئابِ عَلى أن يَعْقِدُوا معَاهدَة سلاَم، واشترطَتِ الذئابُ شَرْطًا واحدًا ذلكَ هُوَ أنْ تُسَلِّمَهم الغنمُ كلابَ الحِرَاسَة.. وعندمَا تمَّ ذلكَ أصبحَتِ الغنمُ بدُون حِراسَة، واسْتَطَاعتِ الذئابُ افتراسهَا!

وطلب ((أيسوبُ)) أنْ يذهبَ سفيرًا لبلاَده إلى الملكِ الذِى يريدُ غَزْوهَا، ورأى النَّاسُ أنَّ ذلكَ كثيرًا عَلى ((أيسوب))، غيرَ أنَّ الملكَ وَافقَ، وبعثَ به، وَإذَا بِه يحكِى حكايةً طَرِيفةً للملكِ الذِى ذَهبَ إليْه.. حيث قَالَ :

• هاجمَ الجرادُ حقلَ وَاحدٍ منَ الفلاَّحينَ، وغضِب الفلاحُ، وراحَ يقتُلُ الجرادَ ويفْتِكُ به، وَلكنه أثناءَ ذلكَ وجدَ بينَ الجرادِ صُرْصُورًا، قالَ للفلاَّح:

- أنتَ تعرفُ أنى لا آكلُ قَمْحَكَ ولا أُسبِّبُ لك أيَّة مُشكِلَة.. كلُّ مَا أملكُه صَوْتِى الذِى أُغنِّى به، وَلَمْ أَستخْدِمْه للهجُومِ عَلَيْك!.

فَأَطلقَ الفلاحُ سَرَاحَه..

وأَدركَ الملـكُ مَا يَعْنيهِ ((أيسـوب))، فعفَا عَنْه وأَطلقَ سَرَاحَه.

وَيَمْضِى ((أيسـوب)) فِى الحياةِ يوزِّعُ الحكايَاتِ، ويرْوى القصصَ إلى أَنْ سقطَ قَتيلاً وَهُوَ فِى مهمةٍ للملكِ.. وَإِذَا بالكوارثِ تحدثُ للمدينةِ وأَهلهَا انتقامًا لمَا حَدَثَ!

وَقـدْ تركَ لنـا ((أيسـوب)) هذَا الـتراثَ الجميـلَ مِنَ القصـص والحكاياتِ التى تُرْجمتْ إلى كُلِّ لغاتِ العَالم.. وأُقيمَ لَهُ فِى أَثينا تمثَالٌ ضَخْم.. عَلى أَنَّ التكريمَ الكبيرَ لهذَا العبقَرِى، هُوَ أَنْ تبحثُوا عنْ حكايَاتِه، لِكَىْ تَسْتمتِعُوا بِهَا.

وأُهْـدِى هَذِه القصَص إلى السَّـيدة التِـى أَوْحَتْ إلىّ بالكتابـةِ فيهَـا؛ لأَنَّ جـذورَ هَـذِه السَّـيدة جَمعَت بينَ الثقافَتيْنِ: الثقافةُ المصريّةُ الفرعُونيّةُ والثقافةُ اليُونانيّةُ القديمَـة... هَذِه السـيدةُ أهـدَتْ إلى دارِ المعارفِ عمرًا طويلاً مِـنَ التَّفَانِى والإِخْلاَص... إِنها السـيدةُ الجليلةُ: أريت فَايز.

① أنا .. أنا هنا!

فى حديقةٍ خضْرَاء غنَّاء، ارتفعت قامةُ أشجارهَا، عَالية..
كانَ مِنْ بينهَا شَجرتَان..
شجرةُ تُفّاح، وشجرةُ رُمَّان.
وكانَ المنتظرُ أنْ تَكُونَ الشَّجرتانِ صديقتين حميمتيْن، تتبادلاَن حَديثًا حُلْوًا، وتتهَامسَانِ بالأفكَارِ، لتشغَلاَ الوقتَ الطويلَ الذى يقضيَانه، وهما يَضَعَانِ السُّكر فى الفاكهةِ التى يحملاَنها، وتَحْكِى كلٌّ منهمَا مَا يَسْتخلصَانِهِ مِنَ الهوَاءِ، والمَاءِ والشَّمْس، فِى مَذَاقٍ حُلو رَائِع..
وَلَمْ يحدثْ ذلك - تمامًا كما يقعُ فِى دنيَا البَشَر - فَقَدْ كَانَ هناكَ صراعٌ خَفِىٌّ فِيمَا بينهمَا، وخلافٌ لاَ مُبرر لَه، ولا يُجْدِى نفعًا.. فارتفعَ صوتُ واحدةٍ منهمَا، لايهمُّ أيهمَا..
- أنا أفضلُ منكِ..
- بَلْ أنا الأجملُ..
وكانَ منَ الميْسُورِ عَلى كلٍّ منهمَا أَنْ تجدَ لديهَا ماتفخرُ بِهِ، وتعتزُّ، وتَتَعَالى، ويجرى هذا أيضاً فِى دنيَا النسَاء.
تعالتْ أصوَاتهمَا معَ كلِّ صباحٍ تُعددُ الواحدةُ منهمَا صِفَاتَهَا الطَّيبة، وتتددُ بالأُخرى.. كلٌّ وَاحدةٍ فيهَا كلُّ الفضَائلِ مِنْ وجْهةِ نظرهَا، وَفِى الثانيةِ كلُّ الرَّذَائِلِ..
كَانتْ كلُّ أشجارِ الحديقةِ تستمعُ لهذَا الشجارِ الدّائم صباحَ مَسَاءْ، حَتَّى أَنَّهُ كَانَ يصلُ إلى الأعشَابِ الصَّغيرةِ، وَإلى

الطُّيُورِ التِى بنَتْ أعشاشـهَا فـوقَ الأغصَانِ.. بلْ فَهِمَه بعضُ البَشَـر، لكنّ أحـدًا لَمْ يتدخَّلْ بينهمَا مـنْ أجلِ أنْ يسـودَ الوئامُ والسَّلام.. بَلْ إنَّ كلَّ واحدةٍ منهما حَاولت أنْ تمدَّ أغصَانهَا وفروعهَا لتتشابكَ مَعَ الأخرى، فِى مُحَاولةٍ عَنيفةٍ لإسْكَاتهَا..

ضاقَـتْ شُـجيْرةٌ صغيرةٌ بهـذَا الذِى يَجْـرى ويحدُثُ، وَللصغَـارِ حِكْمَتُهُـم ووجْهَةُ نظَرهـم، وَرَأيُهُم الذِى يجبُ أنْ يُعبروا عنه، حتَّى لوْ لمْ يكنْ نَاضجًا، أو صَحِيحًا.. مِنْ حَقهم أنْ يقولُوا كَلِمَتَهُم مهمَا شَابهَا منْ خَلَلٍ بسببِ قلَّة الخِبرة، ولقصرِ مُعَاشَـرَتهم للحيَاةِ.. ارتفعَ فرعٌ منْ هَذِهِ الشجَيْرة، وارتفعَ صوتُه صَائحًا صَارخًا:

- ألا تكفَّـان عـنْ هذَا الشـجارِ الـذِى يُزعجنَـا فِى دنيَا الأَشْجَار؟! إننَا أحياءٌ تُؤذِى مشاعرنَا كلماتكُم وألفاظكُم النَّابيَـة.. إنهَا بلاَ مُـبرر وَبدُونِ جَـدْوى! وَافقَتْ بقيةُ أشجارِ الحَديقةِ عَلى كلماتِ الشجيْرَة الصَّغيرة.. وتمنّتْ لـو اكْتفَت بها، وكَفَّت الشـجَرتانِ عَنِ الكَلاَم، غيرَ أنَّ الصَّغيرةَ أضَافت فى فخرٍ وتعالٍ شديديْن:

- عليْكمَـا أنْ تتوقَفَـا عَنْ هذَا الغرورِ الـكَاذِب، عَلى الأقل فِى وجُودى، وَفِى حُضُورى! أنَا هُنَا.. عَليْكم مُراعَاة ذلكَ.

وَكَمَا هتفَ الفيلسوفُ اليُونانى أرسطو ((اعرفْ نفسَك)) رَدَّدَ أيسوب قولَ القائلِ: ((رحمَ الله منْ عرفَ قدرَ نفْسِه))!

② الأخضر والأبيض

تجاورَت شَجرتا تينٍ وزيتُونٍ، ولعلَّهما كَانتَا فى سَيْنَاء.. أو فى اليونانِ - بلد ((أيسوب)) - ونَشَبَ بينهمَا خِلاَف.. ربمَا مَا كانَ يجبُ أنْ يحدثَ.. قالتْ شجرةُ الزيتُون..

- لماذا تتساقطُ أوراقكِ مَعَ الخريفِ كل عَام؟

- أحبُّ أن أُبدلَ ثَوْبى.. وَأُغيّر منْ نفسِى، وأطوِّرَ ذَاتِى، هَزَّت شجرةُ الزيتُون - دَائمَة الخُضْرة - أوراقهَا، ثم آثرت السكوتَ قليلاً، فقالتْ شجرةُ التِّين:

- ألاَ تَضيقِينَ بثوبكِ هذَا الذِى تَلْبسينَه صَيْفًا وشتاءً وَلاَ تَخْلعينَهُ عنكِ يا شجرةَ الزّيتُونِ؟!

- أنا لاَ أطيقُ العُرى..

- الإنسانُ يتعَرَّى عندمَا يسبَحُ فِى الماءِ، وحينَ يستحمُّ، ويبدِّلُ ملاَبسه:

- ليَفْعلَ مَا يَشَاء، ولا شأنَ لِى بِهِ.

- ألسْنَا موجُودِينَ مِنْ أجْله؟!

- بلْ مِنْ أجْل أنفسنَا..

- أنَا أثمُر التينَ ليأكلَه.

- هُوَ لاَ يعترفُ بالجَميلِ.

- إنَّهُ صَاحبُه، ألمْ يزرعْنَا؟ ألاَ نردُّ لَهُ فَضْلَه؟!

- أىُّ فضْلٍ؟ هى سُنّةُ الحياةِ.

- لكِ رأيكِ ولِى رَأيى..

اختلفَتِ الشّجَرَتَانِ، وكانَ منَ اليَسيرِ تسويةُ الخلاَفِ وأنْ يبقَى كلٌّ عندَ رأيه دُونَ إثارة النزاعِ، ولكنَّ شجرةَ التين رَأت أنَّ التينَ أفضلُ منَ الزيتونِ، وأنَّ الأشجارَ دَائمَة الخضرةِ أحسنُ مِنْ تلكَ التِى تتفضُ أورَاقها..

تخاصَمت الشّجرتَان، وبينَ الحينِ والآخرِ كَانتا تتبادلاَن السِّبَاب والشَّتائم.. تقولُ شجرةُ التِّينِ:

- هل تُقارنينَ هذَا الزيتون بالتين الحلْو؟

- زيتونِى يفتحُ الشّهيّةَ، وَيُعْطِى أفضلَ زيتٍ فى الدنيَا.

- الأطفالُ لايميلُون إليْه.

- بلْ يحبُّونه.. الآن أدعكِ كَىْ تَتْفُضِى أوراقَكِ، مِنْ أجلِ أنْ تُصبحِى عَاريةً عَجْفَاء!!

غَضَبتْ شجرةُ التِّين، ولمْ تَرُد، وراحتْ تُسَاقطُ أوراقهَا بينمَا افْتخَرَت شجرةُ الزيتونِ بِوَرَقهَا الأَخْضَرِ...

وجاءَ الشتاءُ، وبدأ الثلجُ الأبيضُ يتساقطُ - إذَنْ الشّجرتَان كَانتا فِى اليونَانِ - بلد ((أيسوب)) - وَثَقُلَت

الثُّلُوجُ عَلى شجرةِ التِّينِ؛ لأَنَّ أوراقهَا احتفظَت به، بينمَا تسـرَّبَ مِـنْ بينِ أغصانِ شَـجرة الزيتُـونِ التِى نَفَضَت أورَاقَهَا فِى الخَرِيفِ.

بَدَأَت شـجرةُ التينِ تَئِـنُّ وتتوجّـعُ إذَا تَرَاكَمت الثلوجُ البيضاءُ يومًا بعدَ يومٍ مِنْ فوقهَا حَتّى نَاءَتْ بهَا..

وذاتَ يـومٍ هـوَت إلى الأرض، ولمْ تقـمْ لهَـا قَائمة، أوراقهَـا التِـى كانت زِينـةً وفخرًا، كَانت السَّـبب فى نهايتهَا..

③ الوتد الخائن

تحفلُ الغابةُ بالأشجارِ الباسقةِ الكبيرةِ الضَّخمة، ذاتِ الفروعِ والأغصَانِ، وكانَ الإنسانُ فى قديمِ الزمنِ فى حاجةٍ ماسَّةٍ إليهَا، منْ أجلِ أنْ يُوقدَ النارَ، يَغلى بهَا الماءَ ليغْسِلَ ثِيَابَه، وَلكى يَطهو عَليهَا طعامًا، ومن أجلِ أن تُدْفئَة فى الشتاءِ البارِدِ القَارِسْ.. كما أنه كانَ يستخدمهَا أيضًا فى الإضَاءَة.

لَمْ يَكُنِ الإنسانُ قادرًا عَلى أنْ يستَغْنى عَن النَّار.. وَهُوَ يجدهَا عن طريقِ الحطَب والخشَب، لذَلكَ اتخذ بعضُ الناسِ مِهْنةَ جَمْعه.. وهُم يَتَّجهُونَ مِنْ أجْل ذلكَ إلى الغاباتِ، حيثُ يحصلونَ منها عليْه.. لكنْ مَا العملُ والصَّحارى بدونِ غَابات؟!

ونذكُر عَن رسولِ الله ﷺ حكايةً معروفةً وعبارةً دَوَّت لتصلَ إلى آذانِ الناسِ عَبْرَ التاريخ، إذ كانَ ﷺ فى رحلةٍ معَ أصْحابه، وحانَ وَقتُ إعْداد الطَّعام، وأعلنَ كلٌّ واحدٍ عَنْ مُهمّة له، هناكَ من سوفَ يذبحُ الشَّاه، ومن يَسْلخها، و..، و..، وبقيتْ مُهِمّةٌ شَاقّة صعبةٌ فى الصَّحْراءِ القَاحلةِ، وهنَا ارتفعَ صوتُه صَلوَات الله وسَلاَمه عليْه قائلاً:

- وأنا عَلىَّ جَمْع الحطَب.

وكانَ الجميعُ على استعدادٍ لأَنْ يقُومُوا عنه بهذه المهَّمة، لكنه أَرَادَ أَنْ يُشَاركَ بالعمَلِ الأَصْعَب ليكونَ القدوةَ الحسنةَ.

والحطّابُ هو جامعُ الحَطَب.. الذِى هُوَ كلُّ ماجَفَّ مِنْ زَرْعٍ وَشَجَرٍ، تُوقَدُ بِه النَّارُ..

والحطَّابونَ كَانوا دَائما أُناسًـا طَيِّبينَ، بُسَطاء، فُقرَاء.. يَسْـعونَ لكسبِ رِزْقهم مِنْ جمْع الحَطَب والخشَب، وبيْعه فِى الأسـوَاق.. وهم يتعبونَ فـى قطْعه، وحمْله، وبيْعه نظـيرَ ثمنٍ زهيدٍ.. وابن الحطَّاب يَتَفوقُ فِى الحكاياتِ عن ابنِ السُّـلطان.. والحطّابُ يدخلُ إلى الغابةِ ليختارَ شجرةً ضخمةً ويَنْهالَ عليهَا بالفأس، ليقطعَهَا، ويسـتفيدَ مِنْ فروعهَـا وأغصَانهَا، وأيضًا جذعهَا.. وهم لكى يَشُـقوا هذَا الجذعَ يأخذونَ منها قطعةَ خشبٍ، يجعلونَ منها وَتَدًا، وهـم يحتاجونَ إليه منْ أجْلِ أَنْ يفْلقوا الجذوعَ الضَّخمة.. وتتأَوَّهُ الشجرةُ وتقولُ..

- لَمْ يكتفِ الإنسانُ بأَنْ يجعلَ منْ قِطْعة مِنِّى يَدًا للفأسِ والبلْطـة، هَا هو يأخذُ مِنِّى قطعةً أُخْرَى.. إننِى لاَ أُبَالى بضربَاته، لكن مَا يُؤلمنى أشَـد وَأَقْسَى أنْ يُمزقَنِى هذَا الوتـد الـذِى هُوَ منى. إنَّ أصعبَ مَا يمكـنُ أنْ يُوَاجِهَه المخلـوقُ هو مَا يجنيهِ عَلى نفْسِـه، عندمَا يَقْضى عَلى نفسِه بنَفْسِه..

مَا أقساكَ أيها الوتدُ الصَّغيرُ..!!

④ السنديانة

ارتفعَ صوتُ السنديَانة ، أَضْخم أشجَارِ الغَابةِ، تشكُو حَالهَا وحظَّهَا، قالتْ فِى حُزْن وَأسَى:

- لماذَا كُتِبَ علينَا - نحنُ - أنْ نكونَ فريسةً للحطَّابينَ، وَتنهَالُ علينَا البلطةُ والفأسُ، لتقطعنَا.. وتهبُّ علينَا العواصفُ لتقتلعَنَا..

وجاءها الرَّد من حيثُ لاَ تدْرى:

- ألستِ سعيدةً لأنكِ أضخمُ الأشجارِ وأعظمُهَا وأطْوَلها قامةً وعُمْرًا ؟

ردَّت الشجرةُ: بَلى، لا شكَّ أننِى سَعيدةٌ بذلكَ، غيرَ أنَّ هَذَا الذِى يُسعدُنِى، هُوَ الذِى يَشقينى ويجعلُنى هدفًا وغَايةً.. إننى أحملُ مَا هُوَ فوقَ طَاقتِى مِنْ أعبَاءِ الحَيَاة، وَلاَ أعرفُ ولاَ أدركُ سِرًّا لذلكَ.. لماذَا عَلىّ وحدِى مِنْ بينِ الأشجَارِ أنْ أعَانى كُلَّ هَذَا ؟!

وصَمَتت السنديَانة.. وطالَ صمتُهَا والأشجَارُ التِى حَولهَا تتطلّعُ إليهَا.. إنهَا تحترمُهَا، وتكبرُهَا، وتقدرُهَا وتعرفُ دورهَا الكَبير، لكنْ هَاهِىَ تشْكُو.. هَاهِىَ تتألمُ، وتهامَستِ الأشجَارُ وَتَسَاءلَت:

- أمَا مِنْ أحدٍ يَرْضَى عَنْ حَالِه ومَأْكَله فِى هَذِه الدنيَا ؟!

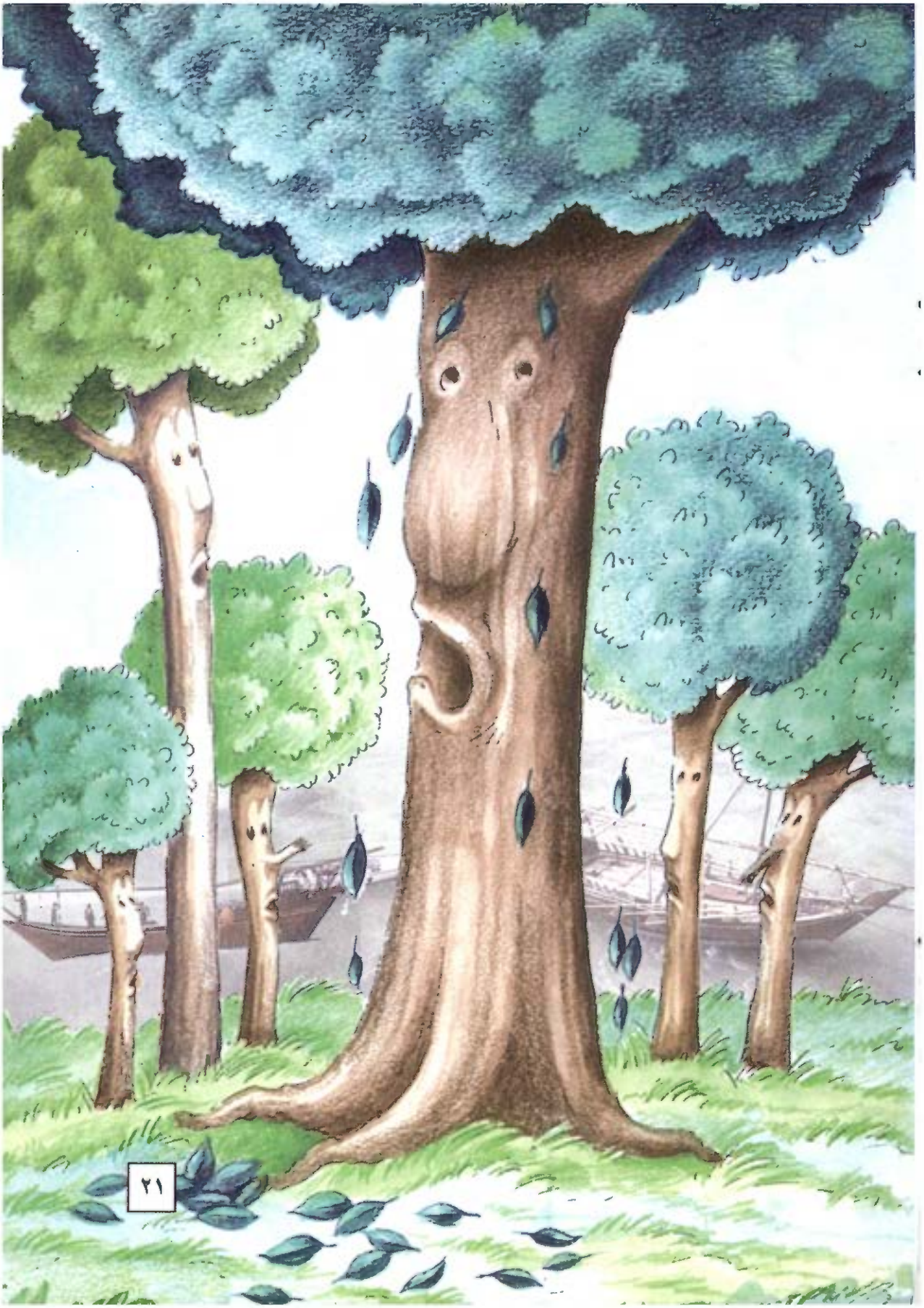

لَمْ تسْمَع السنديَانةُ هَذه الكلمَات، لأنهَا فِى هذه اللَّحظة كَانتْ تَبْكى، وتتساقطُ أوراقُهَا كالدُّموعِ.. وفجأةً جاءَهَا ذلك الصوتُ الذِى يحدثهَا دونَ أنْ تدرِى له مصدرًا، أو تعرفُ صَاحِبَه..

- جديرٌ بكِ أنْ تَفْرحى وَتَسْعَدى، بدلاً منْ أن تتشَاكِى وَتتبَاكى.. أنتِ تعرفينَ - بدونِ شَكَ - أنَّ حاجةَ الحياةِ إليكِ كَبيرة.. مَاذَا يفعلُ الناسُ مِنْ غيرِكِ؟ كيفَ يبنُونَ بُيُوتَهُم بدونكِ، وكيفَ يصنعونَ سُقوفَهُم، وأبوَابَهم، وشبَابِيكَهُم منْ غيرِ أنْ يَسْتعينُوا بخشَبِكِ؟ وكيف السبيلُ إلى السَّرير، والمقعدِ والمائدةِ منْ غيركِ؟!.

وَهَلْ هُمْ فِى غِنًى عنكِ لبناءِ سُفُنِهم التِى تَبْحرُ فِى الأنهَارِ والبحَارِ تنقلُ البَشَر، وإنتاجَهَم وَمحَاصِيلَهُم وحُبُوبَهُم؟.. إنَّ المخلوقاتِ التِى تقدِّم وتحقق مَطَالبَ الآخرِينَ، جَديرة بأنْ تتحمّلَ كلَّ هَذَا.. والشاعرُ العَربى العظِيمُ قالهَا:

- وَإذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا .: تعِبت فى مُرَادها الأجْسَام

كانت السنديَانة قَد استعادَت نفسَهَا.. وكفَّت عَنْ تساقُطِ الدّموعِ والأوراقِ، وَأَصْغَتْ للكلماتِ بحفَاوَةٍ بَالغَة.. إنهَا صاحبةُ نفسٍ كبيرةٍ، شامخةٍ، فلاَ أقلَّ مِنْ أنْ تتعبَ وتتحمَّلَ.

⑤ شجرة الجوز

هى شـجرةٌ تثمرُ مَا نُسـميه أحيانًا ((الفاكهةَ الجافَّة)).. وتتمثَّلُ فى أشـجارِ الجوزِ واللُّوزِ.. وهناكَ شجرة تعطينَا ((جوزَ الهند))، وهو لَذِيذٌ: شرابًا وطعامًا.

وَقفت شجرةُ الجُوزِ، اللَّينة، الطيِّبَة، عَلى جانبِ الطَّريقِ وقـدْ حَملت كَمًّا كبيرًا مِنَ الثمارِ الحُلْوة، كَانَتْ تختالُ بهَا وتعتزُّ وتَفخر.. لكنَّ مُفاجأةً كَانت تنتظِرهَا..

- ما بالُ هَؤلاءِ النَّاسِ الذينَ يمرونَ بِى؟!

إنَّهُـم طِـوَال الوقـتِ يَضْربُونَنِي بالعِصـىِّ الكَبيرةِ، أوْيقذفُونَنِى بالأحجَارِ، مَاذَا فعلتُ لكى أَسـتحقَّ مِنهُمْ كُلَّ هَذَا ؟!

رَاحت شجرةُ الجوزِ ليلَ نهَارٍ تستعرضُ حَيَاتهَا منذُ كَانت نبْتة صَغيرة، تراهَا أخطأتْ فى حقِّ أحَد ؟!

هَـل ارتكبَـتْ غَلْطةً جَسِـيمةً فِى حَيَاتهـا ؟! هلْ كانَ سُلُوكهَا سَيِّئاً أو شَائِنًا، وتَلْقى العقابَ عليه ؟!

كانت أَسْـئلتهَا هَذه، والتِى تعذِّبُ بهَا نفسَهَا، وتجلدُ ذَاتهَـا، أقسَـى عليهَا مِـنْ ضربَـاتِ العَصَـا، والقذْف بِالأحْجَارِ.. وانْفَجَرَتْ بالبكاءِ وَهِىَ تتساءَلُ:

- ما بالُ أطفالِ الحجارةِ يُسَاوونَنى بالسَّفَّاحِين ؟!

هَلْ أصبحتُ والعياذُ باللهِ منهُمْ أو شَبِيهَةٌ بِهِمْ ؟!

لم تجدْ شـجرةُ الجوزِ مَنْ يردُّ عَلى أَسْـئلتهَا، ولَمْ تستطعْ

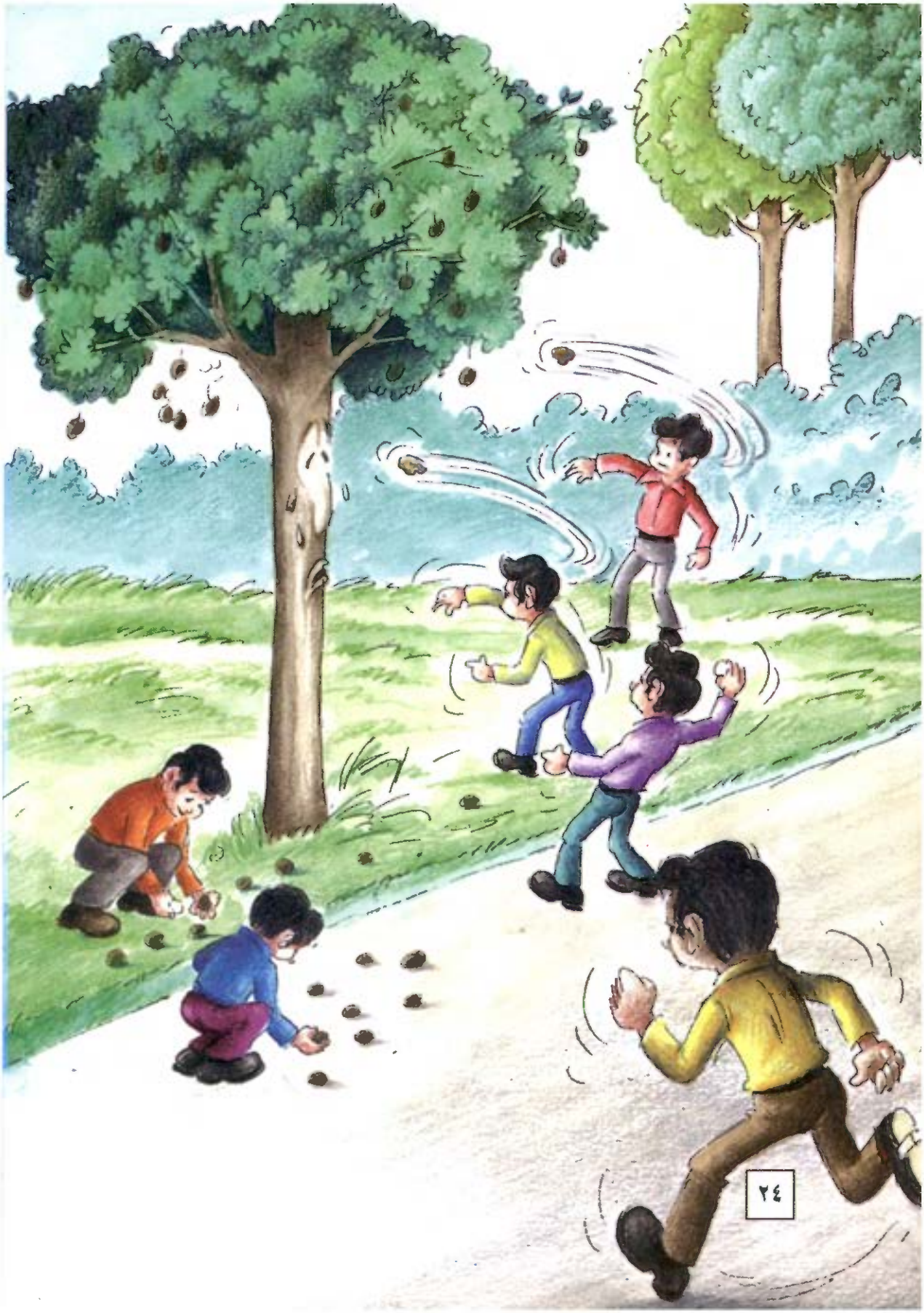

أَنْ تعْتمِدَ عَلى نفسِهَا فِى الإجابةِ عليهَا.. وأعياهَا الموقفُ، وأتعبهَا، وَأرْهقهَا، فاسْتسْلمت للصَّمْتِ فِى حُزنٍ وَأسًى..

وجاءهَا طفلٌ ذاتَ يوم ليجمع ما تساقطَ منها من جُوزِ لذيذٍ، وجلسَ يُقَشِّرُهُ فِى ظلهَا، ويَسْتمتعُ بأكْلِه.. وَأثناءَ ذلكَ رَبَتَ عَلى جِذْعهَا، وقالَ لهَا :

- لاَ أدرِى كيفَ أشكُرُك عَلى هذَا العطاءِ الوفيرِ..

همسَت: بلْ تعرف..

- قولِى: ماذَا فى يدِى ؟

- حاولْ أنْ تجيبَ عَنْ سُؤالى هَذَا: لماذَا يَضْرِبُنِى الناسُ بعَصَاهم؟ لماذَا يقذفُوننى بأحْجَارهم ؟

ضحكَ الصغيرُ، وَرَبت عَلى جذعهَا مرّاتٍ ومرّاتٍ.. وقرّبَ شَفتيْهِ منهَا، وقَبَّلها وقالَ لهَا :

- يجبُ أنْ تشعرينَ بالزَّهوِ حينمَا يفعَلُون هذَا؟ إنهم يمرُّونَ بشجرةٍ غيرِ مُثمرةٍ فَلاَ يُولُونهَا اهتمامًا، بلْ ولا يُلقونَ عليهَا نَظْرَةً، بَيْنمَا يتوقفونَ عِندك ينتظرونَ العَطاء.. إذَا كانوا يُحزنُونك بهذَا، مَا رَأيكِ فِى أنْ تكُفِّى عَنْ إنتاجِ ثمَارِكِ اللَّذِيذِ.

- لاَ لاَ.. لاَ أستطيعُ..

وقالَ أحدُ الحكماءِ: أنَا أجمعُ الأَحْجَارَ التِى يقذفُوننى بهَا، وأصنعُ منهَا هَرَمًا أقفُ عَلى قِمَّته، وأنظرُ إليْهم.. هُم لَنْ يرتفعُوا أبَدًا إلى قَامتِى وقمَّتِى!!

٦ الكنز الخفى

وَقفت الشجرةُ وسطَ الحديقَة: عَاطِلةً، بلاَ ثمرة.. وَقيلَ إنَّ الحديقـةَ لفلاَّح، لكننا فيمَا نرى أنَّ لهَا مالِكًا لا يدركُ قيمةَ الأَشجَارِ، ولا يعرفُ مَاذا تَعْنى.. لأَنَّ الفلاَّح لا يقطعُ شجرةً، وإنمَا يُوليهَا عِنَايَتَه، وَرِعَايته، إلى أنْ تثمرَ وتُعْطى..

أمَّـا مَالـكُ الحديقة، فَقَـدْ رَأى أنَّ الطيورَ تـأْوى إليها، ويَبْنِى كلٌّ منهَا عِشـةً فوقهَا، كما أنَّ العديدَ مِنَ الحشراتِ تسْكنهَا، فَمَا كانَ منه إلاَّ أَنْ طلبَ مِنَ البُسْتانى أَنْ يقطعهَا، ويتخلّـصَ منهَا، وحاولَ الرجلُ بكُلِّ مَا يسْـتطيعُ أن يقنعَ صاحبَ الحديقةِ أنه بفعْلته هَذِه يُسىءُ إلى ((الأرْوَاح)) التى تسْـكنهَا مِنَ الطُّيورِ، ويَقْضى عليهَا، ويشـتتُ عَائلاتِهَا، لكـنَّ الرجلَ أصَـرّ على أنْ يُجهزَ عليهَـا، مَادَامتْ لا تُثمر، وعَطاؤهَا قدْ توقَّفَ.

اضْطرَّ البُسْـتانِىُّ إلى أنْ يَأتى بالفـأسِ الكبير الحادِّ؛ ليضـربَ جِذْعهَـا بلاَ توَقف، وبلاَ رحمَـةٍ، وَرُوِّعَت الطيورُ فِى أعشاشِـهَا، خاصَّة الصِّغارَ منها، وبَدَأ بعضُهَا يُغادرُ العُشّ، مُهَاجرًا، لا يدْرِى إلى أينَ يذهبُ؟ كما أنَّ الشجرةَ تَألمَتْ وَرَاحت تَئِنُّ فِى حزنٍ وَأسـى، إذْ لاَ ذنبَ لهَا فيما يَحْـدُث، وَاسْـتَرْحَمَتْ حاملَ الفأسِ الـذِى لمْ يتوقفْ عَنْ ضَرْبهَا بقوَّةٍ وَعُنفٍ.

طَـارتِ العصَافيرُ والبلاَبـلُ وكلُّ الطيور المغـرِّدَة تجاهَ صَاحب الحديقةِ، وراحَت تستعْطِفه، وتُغَنى له، قائلةً إنها تُشَنِّفُ آذانَ الجميع بصَوْتها الجميلِ، ولاَ دَاعى لهدْمِ بُيُوتهَا، فلمْ يَأبه لها الرجلُ، ولمْ يسـتمعْ لتوَسُّـلها ورَجَائهَا.. معَ أنها شرَحَت له دورهَا الكبيرَ فى الترفيهِ عَنْ عمالِ الحدِيقَةِ، وزُوّارهَـا، والمارِّينَ بها، كانَ قرارُهُ نِهَائيًّا: ألاَّ تبقَى هذِه الشجرةُ فى مَكَانهَا، ولاَ عَلى قيدِ الحيَاة..

وفجأةً عندمَا وَصلت ضربَاتُ الفأسِ إلى جوفِ الشجرةِ فُوجئ صاحبُ الحديقـةِ وعَامِلُهُ الذى يقومُ بمهمةِ قَطْعها بسـرْبٍ كبيرٍ منَ النحـلِ، كَانَ قدْ بَنَى خلاَيَـاهُ بدَاخلهَا، وانطلـقَ النحـلُ كالعَاصِفَـةِ، فى غضبٍ شـديدٍ يقرِصُ الرجلَ، والعاملَ قرصاتٍ مُوجعَة، جَعَلت الأوَّلَ يَجْرى هاربًا صارخًـا، بينما أَلْقَى الثانى بالفَأْسِ مِنْ يدِه ورَاحَ ينطلقُ بأقصَى سُـرْعة، محاولاً الاعتذارَ للنحلِ وللشَّجرة، صائحًا أنه لاَ ذَنبَ له، وَإنَّمَا هو يُنَفِّذُ أوامرَ مَالكِ الحدِيقة..

اعتدلتِ الشجرةُ فى وقْفَتها، بينمَا كَانت قد بدأَت تميلُ قليـلاً، وَعَادَ النحلُ إلى خلاَياه، ورجعَ الرجلُ وَعَامِلُه، إلى الشجرةِ يحاولانِ إصلاحَ الخَطَأ، ويَسْألانهَا أنْ تسَامحهما.. كانت الشـجرةُ أكْرم منهمَا، إذْ قَبلت الاعتذارَ وأَعْطتهمَا بعضًا مِنْ عسلِ نَحْلهَا.

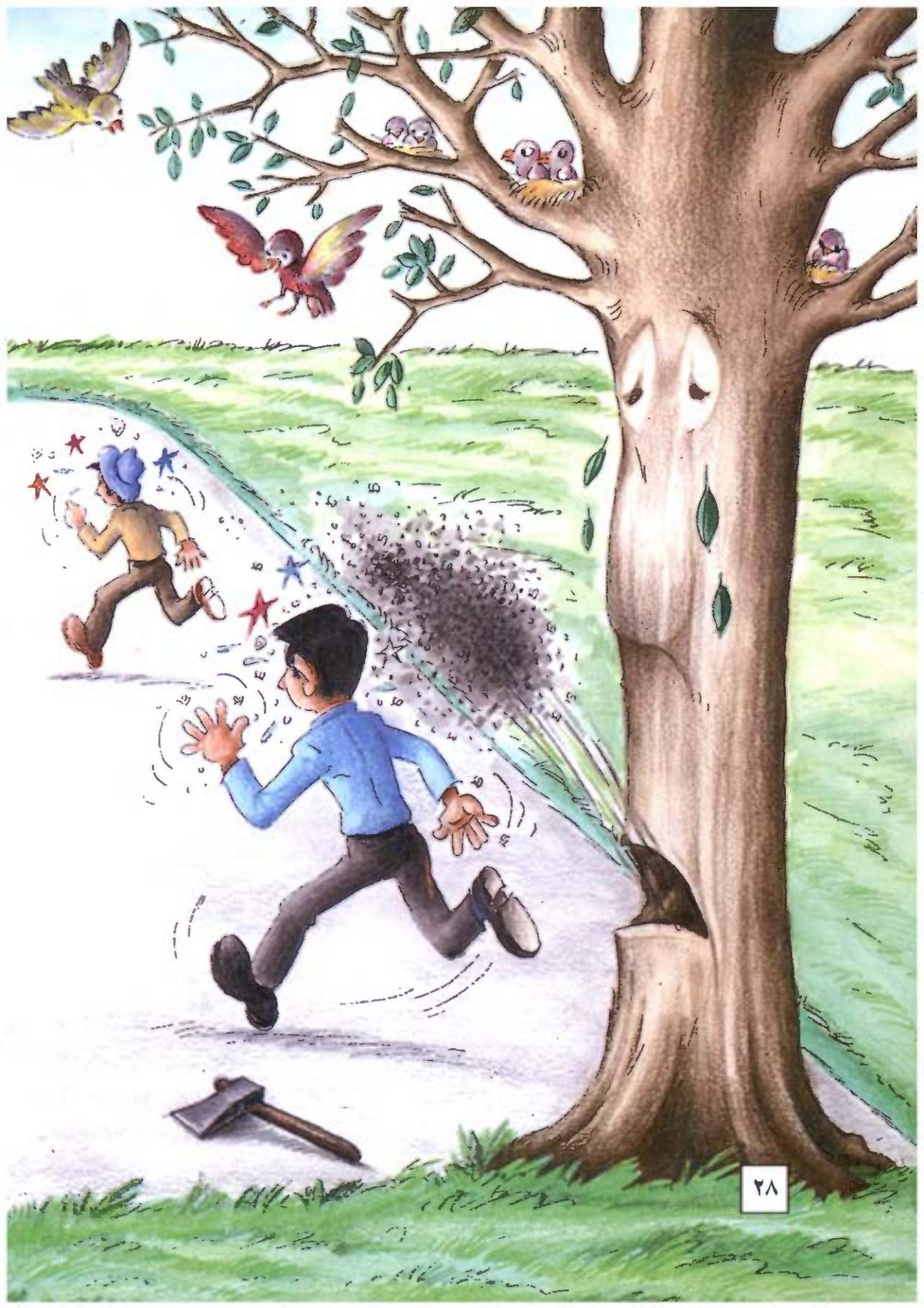

⑦ الشجرة المتسلقة

نمتْ شجرةُ ((شـربين))، عَاليًا، مَمْشُوقةَ القَوامِ، كثيرةَ الأغصانِ، غزيـرةَ الفروع، صُلبًا جذْعهـا، وأضحى قويًّا شَـامخا، يمكنُ أنْ يُسـتفادَ مِنْه، فِى أمورٍ عَدِيدةٍ، تجعلُ الناسَ، والأشجارَ، تنظرُ إليها فى اجلالٍ واحترامٍ كَبِيريْنِ؛ لأنهم يعرفونَ إمكانياتهَا..

وتصادفَ أنْ نَبَتَتْ بجوارهَا شجرةُ لبلاَب، والمعروفُ أنها لا قدرةَ لها على الوقوفِ والصُّعودِ، اللّهُمّ إلاَّ إذَا اعتمدتْ عَلى مُسَاندةٍ ومُسَاعدةٍ.. وبدونِ اسْتِئذانٍ تَسَلَّقت جذعَ شجرةِ الشـربين، وراحَت تدورُ مِنْ حولِ سَاقهَا، صاعدةً إلى العـلاَ، ورَاقها ذلكَ، وأحَسَّـت بأنَّ فِى وصُولهَا إلى هذه القمةِ العاليةِ شرفًا ومجدًا لابدَّ وأنْ يُحْسبَ لهَا، وأنَّ على الأشجارِ أنْ تقدرَ لَهَا مَكانهَا ومَكَانتهَا..

وما كانَ منها إلاَّ أنْ هَمَسـتْ بذلكَ لشـجرةِ الشـربين التِى أدهَشَها كثيرًا هذَا القولُ الغريبُ مِنْ شجرةٍ صغيرةٍ مُتسَلقة، تظنُّ نفسهَا قدْ حَقَّقتْ مجدًا بالعُلُو والارتفاعِ ولو عَلى حسـابِ غيرهَا، وحاولَت شـجرةُ الشربين أنْ تعيدَهَا إلى صَوَابهَا، وتصححَ لها مفَاهِيمَهَا، فردّت عليهَا قائلةً:

- هَلْ فاتكِ أنكِ عَدِيمةِ الفائدةِ قَليلةِ الجدْوَى ؟

غَضِبت شجرةُ اللِّبلاَب وقَالتْ لهَا مُهَدِّدةً:

- ماذَا؟ أَنَا بِلاَ فَائدة؟!
- هَذَا مَا أَرَاه.
- وَمَا فائدتك أنت؟
- هذَا الخشـبُ الذِى أُعْطيـهِ للناسِ لِيُقيمُوا به بُيُوتهم ويصنعُوا أثاثهم، ويُوقدوا نَارهُم.. قَالتِ اللِّبْلابةُ فِى تحدٍّ :
- لماذَا تَذْكرينَ هذَا وتَنْسـينَ الفؤوسَ التِى تضربكِ، والمنشارَ الذِى يقطعُكِ ؟
- ذلـكَ يُؤلمنـى، ويُوجِعُنى، ولكنْ لابدَّ مِنْـهُ لِكَىْ تتمَّ الفائدةُ مِنِّى.. أحيَانًا يستعذبُ المخلوقُ الألمَ ويحتملُهُ للصَّالحِ العَام..

قالتِ اللِّبلاَبة: أنت شخصيةٌ غبيَّةٌ بَلْهَاء..

- تعتمدينَ علىَّ، وَتَسُبينَنِى وَتَشْتمِينَنى ؟!
- لَـنْ اكتفِى بذلكَ، بَلْ سـوفَ أُضَيِّـقُ عليكِ الخناقَ، وأعصركِ عصرًا..

قَهْقهتْ شـجرةُ الشربين، وسَخِرت مِنْ تهديدِ اللِّبلاَبة، وَقَالت لَهَا:

- حَاولى، لَسْتِ لَيِّنةً لأعْصركِ.. وَلَكننى قَادرة عَلى أَنْ أَهْتزَّ قليلاً، هَكَذَا..

ووجَدَت البلابةُ نفسهَا مُلْقاةً عَلى الأرضِ!

⑧ السنديانه والعُشبة

وَقَفتِ السنديانة، عاليةً، شامخةً، تكادُ فروعُهَا أَنْ تجتازَ السَّحابَ، وتلمسَ أطرافَ السّماءِ، ولم تكنْ فى حاجةٍ لأَنْ تقولَ..

- أنا خالدةٌ عَلى مرّ الزمَن، فمنذُ كنتُ بذرةً انبثقَ منها نبتٌ أخضرٌ صَغيرٌ، ظلَّ يَنمو، ويَكبر، ويتضَخّم، إلى أنْ أصبحتُ أطولَ مِنْ كلِّ الأشجَارِ قامةً وعمرًا!

كانتِ الشجرةُ فِى وقفتهَا تظللُّ مِسَاحاتٍ واسِعَة مِنَ الأرضِ، تنبتُ فيهَا أعشابٌ صغيرةٌ ضئيلةٌ، لا تكادُ تُرى مِنْ فوقِ سطحِ الأرضِ، وَهِىَ رغمَ بسَاطتها تتمايلُ وتُغنى وتُفرد، سعيدةً بحيَاتها، وبأنهَا وُجِدَتْ فِى مُرُوجٍ خَضرَاء، تكْسُوا الأرضَ بِهَذَا السُّندسِ البَديع..

وكانت قامتها القصيرةُ، لا تسمحُ لهَا بأنْ ترفعَ رأسهَا لكى ترى قمةَ السنديانة العَالية الشَّامخة، ولمْ تكنْ هذه بدورهَا تهتمُّ لهذَا العشْبِ الصَّغير، الذى لاَ يكادُ أَنْ يرتفِعَ عَنْ مَوْطِئ أقدَامهَا الضَّخمة، التى غَرستهَا عميقةً فِى التّربَةِ.. بلْ لمْ تَكُنِ السنديانةُ تُولِى الإنسانَ نفسَه شيئاً منَ اهتمامهَا، وربما تطاوَلت عَليه، وصَارحَته بأنها من الأحياءِ حيثُ تظلُّ تَنْمُوا العمرَ كُلَّه، بينمَا يتوقفُ نموُّه هُو عندِ سنٍّ مُعَيّن.. إنه سِرٌّ إلهى مَنحَه اللهُ للشَّجرِ.

وذاتَ يومٍ اسودَّت الغيومُ، وبدَأت النَّسَماتُ تتحولُ إلى رياحٍ، وبعدَ قليلٍ صَارت عَاصِفةً هَوْجَاءَ.. انقلبت بعدَه إلى إعصَارٍ مُدَمِّرٍ.. فى البدَايةِ، لم تبدِ السنديانة اهتمامًا لما يحدُثُ ويجْرى، وبقيتْ ترقبُ فروعهَا وأغصَانها تتضاربُ بقوةٍ وعنفٍ.. وضَاقتْ بِذَلكَ، واهتزَّت فى غضَبٍ، مُحْتجّة.

كانَ واضحًا أنَّ السنديانة قدْ بَلغت ((مِنَ الكِبَرِ عِتِيًّا))، أىْ أنهَا قدْ أَصْبحت كبيرةَ العمرِ، عجوزًا عاجزةً عَنْ حِمَاية نفسهَا منَ الإعصَار، وبدأت جذورُهَا تتململُ، وتتحركُ، بَلْ بدَأتْ تحسّ أنهَا تُقتلعُ مِنْ مَكَانهَا، وَأطلقتِ الشجرةُ صْيحَاتِ استغَاثةٍ لعلَّ أحدًا يُنْقِذُهَا، غيرَ أنه كانَ - وسيظلّ - مَصِيرًا مَحْتُومًا لا فِرَارَ منه..

وفجَأةً بعدَ صرخةٍ مُدَوية وَجَدَت السنديانة نفسَهَا وَقَدْ سَقَطت سُقُوطًا مُدَوِّيًا، وافْترشَتِ الأرضَ على الأعشابِ الصَّغيرةِ.. سألتهَا السنديانة:

- كيف لا يقتلعُكِ هذَا الإعصارُ الرَّهيبُ؟!

ردّت: نحنُ الصغارُ قادرونَ عَلى أنْ نَحْنِى رأسَنَا للعاصِفَةِ إلى أنْ تمرَّ، وهذا أمرٌ لا تستطيعينَهُ، ولا يمكنكِ مَعَ طولِ قَامتك وطولِ عمركِ أنْ تفعَليهِ، لذلكَ كانَ سُقُوطكِ المدَوِّى..

⑨ يد الفأس

لمْ تكـنْ أشـجارُ الغابـةِ الكثيفةِ الضخمَـةِ تهتمُّ كثيرًا بشـجرةٍ صغيرةٍ ضئيلةٍ، ولا تُوليهَا بَالاً، بَلْ كانت تسخرُ مِنْ قصرِ قامتهَا، وضعْفها، إلى حدٍّ أنهم سمّوهَا: ((لسَان العصْفُور))، وتضاحك كُل مَنْ فِى الغابةِ وتساءَلَ:

- هَلْ للعُصفورِ لسَان؟!

وطـوَت ((لسـانُ العصفـور)) أحزانهَـا، وانكفأَت على نفسـهَا فى صَمْتٍ، تجترُّ أحْزانهَا، فلاَ حولَ لَهَا ولاَ قُوَّة، وَمَـا مِنْ قدرةٍ لديهَـا عَلى تحدِّى الأشـجَار العملاَقة منْ حَوْلها، وما مِنْ جَدْوى للتصدِّى لِمَا تقولُه عنهَا..

وذاتَ يومٍ دخَل إلى الغابةِ إنسانٌ.. تطلَّعَ أَمَامه، ونظرَ يمينًا ويسـارًا، ثم اسـتدارَ إلى الـوراءِ. كانَ واضحًا أنه يبحثُ عَنْ شىء مَا، لَمْ يفصحْ عَنْه فِى البدَاية.. ثمّ أعْلنه فى إصرارٍ وتَصْميم:

- أريدُ خشبةً أصْنعُ بِهَا يدًا لفأْسى..

لمْ تكن الأشـجارُ تعرفُ الكلمةَ أو مَعْناهَا.. لكنَّ الرجلَ كانَ قَـدْ توصَّل بفكـرِهِ وذكَائه، وربما عَبْقريته، إلى أنه بحاجةٍ إلى شـىءٍ مَعْدنى يَشـقُّ به باطـنَ الأرضِ ويقلبُ تُربتهـا، كَمَا يحتـاجُ إلى حَفْرِ قنواتِ الماء، ليصلَ به إلى أرجَـاء بعيـدةٍ مُتفرقةٍ مـن أرضِ حَقْله الـذِى قَرَّر أنْ

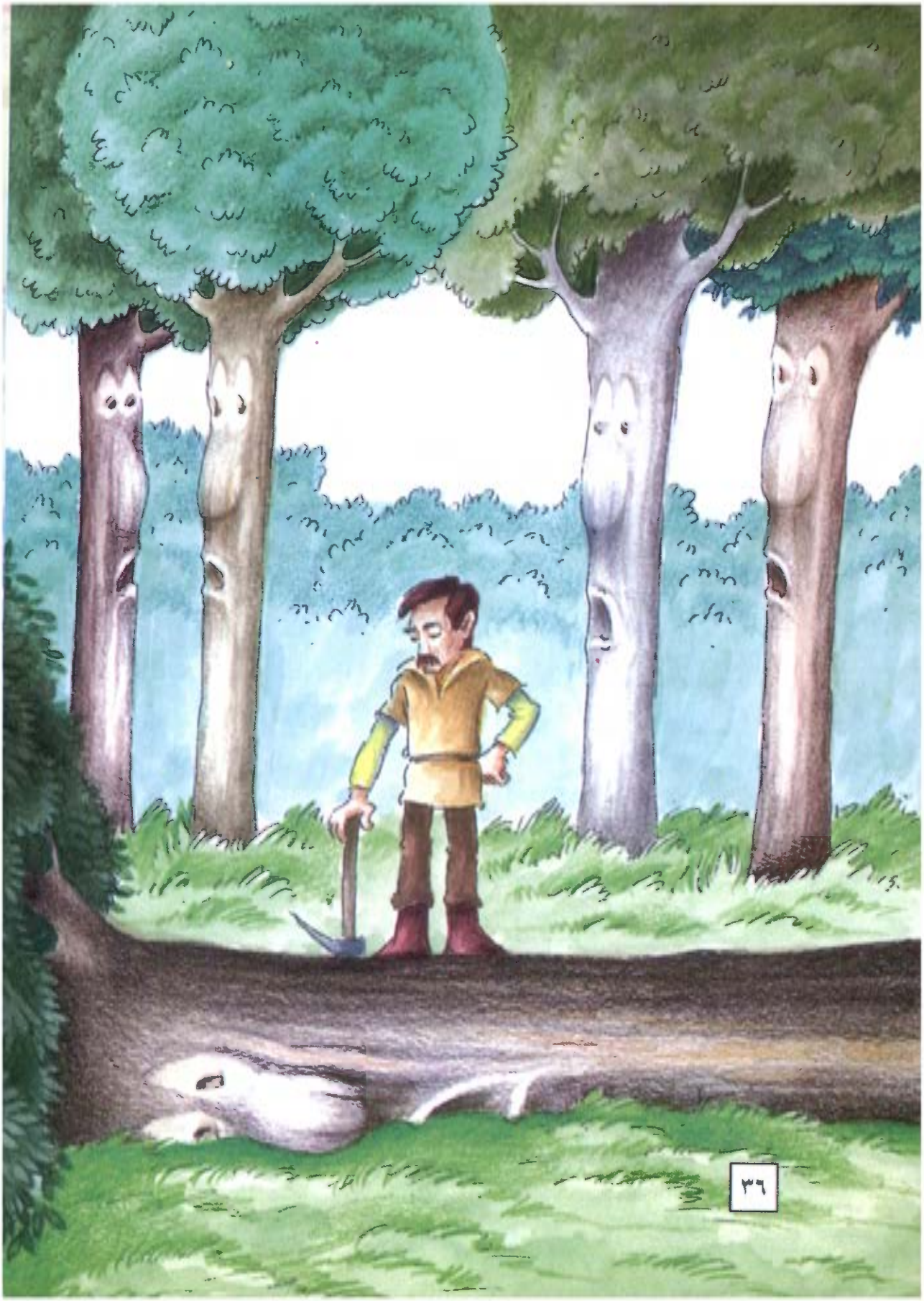

يَزْرَعَه، ولا يعتمدُ فقط عَلى ما تهبُهُ - إياهُ - الطبيعةُ .

أشارت الفروعُ والأغصانُ التِى تتدلىَّ وترتفعُ مِنَ الأشجارِ الضّخْمةِ، إلى الشجرةِ البسيطةِ الصغيرةِ الضَّعيفةِ وَهَتفتْ تقولُ للرَّجُلِ:

- عندكَ شجرةُ لِسَان العُصفورِ.. خُذْهَا!

هى لمْ تسأل الرجلَ عَنْ مَعْنى كلمَة فَأْس، ولاَ عَرفت منه أىَّ شىءٍ هَذَا الذِى يُسَميه فأسًا ؟.

حمل الرجلُ الشجرةَ، وصنعَ منهَا يدَ الفأسِ، ورغبَ فِى أن يُجرِّبَهَا، وإذَا بِهِ يضربُ بها جذعَ أَضْخمِ الأشجارِ، وظلَّ يضربهَا إلى أنْ وقعَت صَريعةً على الأرضِ، وهى تتأوَّهُ وتصْرُخُ:

- هَل هكذَا تفعلينَ بِى يا لسَانَ العصْفورِ؟

وتبادَلَتِ الأشجارُ النظراتِ فِى حَسْرةٍ وألمٍ.. كانَ ذلكَ بعدَ فواتِ الأوانِ.. لقد نظرَت إليهَا فى استخفَافٍ، وَلَمْ تُحاول أنْ تعرفَ مَا هى الفَأس، قبلَ أنْ تقدِّمَ إليهِ شجرةَ لسَانِ العصْفورِ لتصبحَ يدًا لهَا، وللإنسانِ لكىْ يذبحَ بهَا هَذه الأَشْجَار، التِى يحتاجُها لِكَىْ تُبْقيهِ عَلى قيدِ الحياةِ، وتمنحهُ الهواءَ الذِى يتنفَّسهُ، والطعامَ الذِى يأكلُهُ، والظلَّ الذِى يلجأُ إليه مِنَ الشَّمسِ المُحْرِقَةِ.

⑩ الكَرمة العَطُوف

كَبِرت - الكرْمَةُ - شـجرةُ العِنَبِ - واستطالَ ساقُهَا واسـتقامَ مُعْتمدًا عَلى سَـنَدٍ خَشـبى فَارِع، أقَامَه لَهَا إنسَـانٌ طَيِّب.. وتَنَاثرتْ أوراقُهَا الخضراءُ العَرِيضَةُ، واحْتَشَـدَت مِنْ فوقِ فروعهَا الرفِيعَةِ، وبدأتْ تستعدُّ لكـى تطـرحَ ثمارَهَا مِنْ عناقيدِ العنـبِ البَلُّورى الذِى يَشـفُّ فِى ضوءِ الشَّـمْس عَمَّـا بدَاخِلـه.. وانتظرَت القادِمينَ لقطْفه، وَبَيْعه فِى الأسوَاق.

قَـدْ تكونُ هَذِه الكرمةُ هِىَ التى جاءهَا الثعلبُ يومًا وراحَ يقفـزُ، محـاولاً أنْ يصلَ إلى ثمارهَا الشـهيَّة، وعندمَا لمْ يُوَفّق، قال كلمتَه الشَّهيرَة:

- إنه عِنبٌ مُرٌّ، حِصْرِمٌ لمْ يَنْضجْ بَعْد!

ضحكـتِ الكرمةُ عَلى الثعلبِ، الذِى يغالطُ نفسَـه، لكنهَـا لمْ تَضْحكْ عَلى ذلكَ الظَّبْيِ الصَّغيرِ الذِى يظنُّ نفسَـه مَكيرًا مِثْل الثَّعْلبِ، وقادرًا دَائما عَلى الهربِ منَ الصَّيَّادينَ والإفلاتِ منهم فى براعةٍ يراهَا مُنقطعة النَّظير..

أشْفَقَت الكرمةُ على الظَّبى، وهو يجْرى ويلهثُ خوفًا مِـنَ الصّيّادينَ الذيـنَ كَانُوا يُطَارِدُونَـهُ وفِى أيْديهم بنادِقُهم، يُصوِّبُونها إليهِ وهو يجرِى بأقصَى سُرْعته..

نَادت الكرمـةُ عَلى الظّبى الـذى كانَ يرتعدُ خوفًا وَرُعبًـا، وأشَـارت إليـه أنْ يختفِى خَلْفَهَا، وسـوفَ تغطِّيـه أوراقُهَـا الخضراءُ العَرِيضَـة.. لذلكَ لم يرهُ الصيـادُونَ وَهُـمْ يُطَاردونـه، وتجـاوَزُوه وَهُوَ مِنْ وراءِ الكرمـة مُختفيًـا مُخْتبئًـا، ومَا مِنَ شـىءٍ يَظْهرُ مِنْه، فالتقطَ أنفَاسَـه، وبدَأ يَشعرُ بشىءٍ مِنَ الأمَانِ والاطْمِئنان..

وكانَ واحـدٌ منَ الصّيادينَ قـدْ تخلَّفَ عَنِ المطاردةِ مَعَ زُمَلائه؛ لأنه تعبَ مِنَ الجَرْيِ، لذلك سارَ عَلى مهلٍ ومضَى ليلحقَ بزملائِه، وَأثْنَاءَ سيْرِهِ لمحَ أوراقَ الكرمةِ تهتزُّ، فمَا كانَ مِنْهُ إلاَّ أنْ توقَّفَ وتفرَّس فى الكرمةِ، وَمَا منْ هواءٍ يعبثُ بأوراقهَا.. كانَ الظَّبى الصَغيرُ قدِ استراحَ فى ظلِّ الكَرْمة، وراحَ يقضمُ أوْرَاقهَا مُتلذذًا، وهى تهمسُ مُعَاتبةً:

- أهَذَا جزاءُ إحسَانى لكَ وعطْفِى عَليك وإنقاذكَ مِنْ بين أيدِى الصَّيّادينَ؟!

وَفَجْأَةً دَوَّى طلقٌ نَارىٌّ.. ووجدَ الظّبى نفسَـه مُلْقى عَلى الأرضِ، ورَأى الصَّيَّادَ يجرى نحوَهُ لكى يلتقطَه منْ مَكَانه، صيدًا سَمِينًا ثمينًا، هَذا - وَقَدْ دَفَعَت الشراهةُ صَاحِبَهَا إلى الإسَاءَةِ للكرمةِ التِى أحْسَنت إِلَيْهِ.